

الفصل السابع

امرؤ القيس

١

قبيلته وأسرته^(١)

امرؤ القيس من قبيلة كندة، ومن بيت السيادة فيها، وهي قبيلة يمنية^(٢) كانت تنزل في غربي حضرموت، وهاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشمال مع هجرات اليمنيين المعروفة، واستقرت جنوبي وادي الرمة الذي يمتد من شمالي المدينة إلى العراق. وقد احتلت كما مر بنا مكاناً بارزاً في نجد منذ أواسط القرن الخامس للميلاد، فإننا نجد على رأسها أميراً يسمى حجرًا آكل المزار^(٣) تعاقبت الإمارة في بنيه من بعده، ويظهر أنه استطاع أن يفرض سيادته على كثير من القبائل الشمالية، وأنه كان يدين بالطاعة للملك حمير اليمنيين^(٤).

وهذه الإمارة الكندية النجدية كانت تقابل إمارة المناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام، وقد أدى وقوعها بينهما ومحاولتها بسط نفوذها على قبائل معد من حولها إلى أن تصطدم بالإمارتين المجاورتين لها جميعاً، وهو اصطدام تروى أخباره منذ قيام حجر آكل المزار، إذ كثيراً ما كان يشتبك في حروب مع الغساسنة^(٥). وما زال يمد رقعة ملكه حتى بلغت حدود المناذرة، ويتوفي فيخلفه ابنه عمرو ويحافظ على ما ورث عن أبيه من سلطان، ويصهر إليه ملك الحيرة^(٦) مما يدل على اتساع

(١) راجع في كندة وأمرائها كتاب أوليندر السالف ذكره.

(٢) أنظر في ذلك الاشتقاق (طبعة جوتنجن) ٢١٨/٢ والأغاني ٧٧/٩ وهناك من يزعم أن كندة قبيلة عدنانية (أنظر الأغاني طبعة دار الكتب ٧٩/١٣ والمفضليات طبعة لايل ٤٢٧/١) ولكن هذا الزعم غير صحيح، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نجد في أسماء أعلامها كما قدمنا نفس الأسماء اليمنية مثل شرجيل ومعد يكر ب ابن الحارث.

(٣) آكل المزار لقب لحجر، وأصله فحل الإبل يأكل نباتاً مراً يسمى المزار، فكأنهم أرادوا به حجرًا الفحل.

(٤) الأغاني (طبع الساسي) ٢٨/١٥ وابن خلدون ٢٧٣/٢ وجواد على ٢٢٠/٣.

(٥) الأغاني ٨٢/١٥ وما بعدها.

(٦) تاريخ الطبري (طبعة أوربا) ٩٠٠/١ وحمة الأصفهاني ص ٦٩.

نفوذه، ويعقبه ابنه الحارث، وهو أهم أمراء هذه السرة، والمظنون أنه بدأ حكمه حوالي سنة ٤٩٠ للميلاد. ويذكر المؤرخون البيزنطيون أنه كان كثير الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته ابنه حجر ومعد يكر، وقد أغار على فلسطين الرومانية ي عامي ٤٩٧ و ٥٠١ للميلاد^(١).

ولا نتقدم في القرن السادس حتى يعظم سلطان الحارث في نجد. وحدث أن غضب قباذ ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة بسبب رفضه لمذهب المزدكية، كما مر بنا في غير هذا الموضع، فعزله وولي على الحيرة مكانه الحارث ختنه^(٢)، فتحقق له حلم آبائه بتقويض الإمارة اللخمية، وولى أبناءه على القبائل، فجعل - كما تقول بعض الروايات - حجرًا على أسد وغطفان، وشر حبييل على بكر ومعد يكر، على تغلب وسلمة على قيس^(٣).

وسرعان ما تطورت الأحداث، فإن الأحباش استولوا على اليمين وتوفي قباذ وخلفه كسرى أنوشروان سنة ٥٢٨ وكان يكره مزدك والمزدكية، فاضطهد أنصارها في بلاده، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة عاصمته، وقد أدار مع الحارث معارك طاحنة، انتهت بقتل الحارث. وتبع المنذر أبناءه يوقع بهم ويؤلب القبائل عليهم، وسرعان ما سقط معد يكر وسلمة في معركة تعرف بيوم أواره الأول^(٤) ويقال إن معد يكر أصابه الجنون، وكان شر حبييل قد سقط قبل ذلك في معركة بينه وبين أخيه سلمة تعرف بيوم الكلاب الأول^(٥).

أما حجر وهو أبو امرئ القيص فقتلته قبيلة بني أسد، ويروى صاحب الأغاني أربع روايات مختلفة في قتله^(٦)، أما الأولى فقد رواها عن هشام بن الكلبي (المتوفى سنة ٢٠٤هـ) وهي تزعم أن حجرًا كان له على بني أسد إتاوة يؤدونها كل عام، فلما قتل أبوه أرسل إليهم جباته فمنعهم

(١) أنظر في ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/ ٢٤٥.

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٨ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٣ وما بعدها.

(٤) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان) ص ٨٨٧ وتاريخ ابن الأثير ١/ ٢٢٨.

(٥) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢/ ٢٠٨ وما بعدها والمفصليات (طبعة لايل) ١/ ٤٢٨ وابن الأثير ١/ ٢٢٧ ومعجم

البلدان لياقوت ٧/ ٢٦٩.

(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٩/ ٨٢.

وضربوهم ضرباً مبرحاً، فسار إليهم حجر يجند من ربيعة وقيس وكنانة، فاستسلموا له، فأخذ سادتهم، وجعل يقتلهم بالعصا- فسموا عبيد العصا- وأباح أموالهم، وطردهم من منازلهم في جنوبي وادي الرمة إلى تهامة، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود السدي، وشاعرهم عبيد بن الأبرص وقد استعطفه بقصيدة يقول له فيها:

أنت المليكُ عليهمُ وهم العبيدُ إلى القيامة

فأثر ذلك في نفس حجر، وعفا عنهم، ولكنهم أضمرُوا له الانتقام، واصابوا منه غرة، فقتلوه في قبته، ونهبوا ما كان معه من أموال.

والرواية الثانية رواها أبو الفرج عن أبي عمرو الشيباني (المتوفى سنة ٢١٣هـ) وهي تزعم أن حجراً خاف على نفسه من بني أسد، فاستجار بعوير بن شجنة التميمي لبنته هند وأهله، ثم مال على بعض بني سعد بن ثعلبة فأدركه علباء بن الحارث السدي، وغافله، وقتله.

والرواية الثالثة رواها أبو الفرج عن الهيثم بن عدي (المتوفى سنة ٢٠٦هـ) وهي تذكر أن حجراً لما استجار عوير بن شجنة لبنيه وأهله تحول عن بني أسد فأقام في عشيرته كندة مدة، وجمع لبني أسد منهم جميعاً عظيماً، وأقبل مدلاً بمن معه من الجنود، فتآمرت بنو أسد بينها، وقالوا: والله لئن قهركم هذا ليحكمنا عليكم حكم الصبي! وما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشد العرب فموتوا كراماً. فساروا إلى حجر وقد ارتحل نحوهم فلقوه، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً، وكان صاحب أمرهم علباء بن الحارث فحمل على حجر فطعنه، فقتله، وأنهرمت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس بن حجر، فهرب على فرس له شقراء، وأعجزهم. وقد قتلوا من أهل بيته طائفة واسروا أخرى وملاؤا أيديهم من الغنائم، وأخذوا جوارى حجر ونساءه وكل ما كان معه من أموال، واقتسموا ذلك جميعه.

أما الرواية الرابعة فرواها أبو الفرج عن ابن السكيت (المتوفى سنة ٢٤٤هـ) وهي تزعم أن حجراً أقبل بعد موت أبيه راجعاً إلى بني أسد، وكان قد أساء ولايتهم. وتشاورت بنو أسد فيه، وأجمع أمرهم على إعلان الحرب عليه، وخرج إليه بعض شجعانهم، فقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانهم وسبوا جواريه. وعلم حجر بذلك فقاتلهم غير أنهم هزموه وأسروه، ووُثب منهم فتى كان له عنده ثأر، فقتله.

والرواية الأولى رواية هشام الكلبي، وهو متهم فيما يرويه، فهي رواية ضعيفة، ومما يدل على فسادها قصيدة عبيد التي ذكر في تضاعيفها يوم القيامة: ومن أين له بمعرفة هذا اليوم الذي جاء في القرآن الكريم وهو جاهلي وثني؟. ومثلها الروايتان الثانية والرابعة، فأثر الافتعال فيهما واضح، لسبب بسيط، وهو أن حجرًا يموت غيلة، ولا نرى عشيرته كندة تتأثر له أو تشتبك من أجله في حرب مع بني أسد. لذلك نرجح الرواية الثالثة رواية الهيثم بن عدي، وهي تتفق مع ما رده عبيد بن الأبرص في شعره مرارًا من أن قبيلته نكلت بكندة وصاحبها حجر، وكان عبيد معاصرًا للحوادث وشاهد عيان لها، ومن قوله في ذلك يخاطب امرأ القيس^(١):

ورَكَضْكَ لَوْلَاهُ لَقِيتَ الَّذِي لَقُوا فذاك الذي أنجاك مما هنالكَا

وهو يشير بذلك في وضوح إلى فرار امرئ القيس من المعركة التي قتل فيها أبوه، ونراه يصف هذه المعركة، ويصرح بهزيمة كندة فيها وقتل حجر إذا يقول معرضًا بامرئ القيس وساخرًا من وعيده وتهديده لقومه^(٢):

يا إذا المخوفنا بقتْ ل أبية إذلالاً وحيناً^(٣).

أزعمت أنك قد قتا سَ سَراتنا كذباً وميناً^(٤).

هلاً على حُجْر ابن أمِّ قطام تبكي لا علينا

هلا سألت جمع كند دة يوم ولوا أين أيننا

أيام نضرب هامهم ببواترٍ حتى أنحنينا^(٥).

(١) ديوان عبيد بن الأبرص (طبعة لایل) ص ٥٣.

(٢) الديوان ص ٢٧.

(٣) الحين: الموت.

(٤) السراة: السادة، المين: الكذب.

(٥) السيوف البواتر: القاطعة.

ويتكرر في ديوان عبيد وصف نهاية حجر وملك كندة على أسد بهذه الصورة مراراً^(١) مما يدل على أن رواية الهيثم بن عدي أكثر قرباً إلى الصحة والصدق وأن الروايات الأخرى دخلها الفساد والانتحال.

(١) أنظر ديوان عبيد القصائد رقم ٤، ١٧، ٢٦.

حياته

تتردد في كتب الأدب أسماء مختلفة لامرئ القيس، فيسمى حندجاً وعدياً وملكية^(١)، ويكنى بأبي وهب وأبي زيد وأبي الحارث ويلقب بذي القروح والملك الضليل^(٢)، وأشهر ألقابه امرؤ القيس، والقيس من أصنامهم في الجاهلية كانوا يعبدونه ويتنسبون إليه. وأبوه حجر بن الحارث كما مر بنا. أما أمه ففاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلل التغلبيين^(٣). ووهم بعض الرواة في نسبه، فقالوا إنه امرؤ القيس بن السمط بن امرئ القيس بن عمرو الكندي، وإن أمه تملك بنت عمرو بن زبيد بن مذحج من رهط عمرو بن معد يكرب^(٤). وهو خلط أوقعهم فيه تشابه اسمه مع اسم هذا الشاعر، وكان في الجاهلية ستة عشر شاعراً كلهم يتسمى باسم امرئ القيس.

ولا نعرف مولده، ويظن أنه ولد في أوائل القرن السادس للميلاد، وليس بين أيدينا أى شيء واضح عن نشأته وكيف أمضى أيامه الأولى في شبابه إلا أخباراً تغلب عليها الأسطورة، من ذلك ما رواه^(٥) هشام الكلبي إذ يزعم أن أباه حجراً طرده وآلى (أقسم) أن لا يقيم معه أنفة من قوله الشعر، وكانت الملوك تأنف من ذلك، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ القبائل: من طيئ وكلب وبكر ابن وائل، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج إلى الصيد، فتصيد ثم عاد، فأكل وأكلوا معه، وشرب الخمر، وسقاهم، وغتته قيانه. ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير، ثم ينتقل عنه إلى غيره. فأتاه خبر أبيه ومقتله

(١) أنظر جواد على ٢٥٣/٣ و Olinder ص ٩٥ وشرح المعلقات السبع للزوزني ص ١ وما بعدها والمؤتلف والمختلف

للأمدي ص ٩ وجمهرة أشعار العرب ص ٢٠ والمزهر للسيوطي ٤٢٢/٢ وشرح شواهد المغني له ص ٦.

(٢) الأغاني ٧٨/٩ وأنظر ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة دار المعارف) ٥٢/١ وما بعدها.

(٣) أغاني ٧٧/٩.

(٤) أغاني ٧٧/٩.

(٥) أغاني ٧٧/٩ وما بعدها.

وهو بدمون من أرض اليمن، أتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر الأعور أخو الوصاف، فلما أتاه بذلك قال:

تَطاول الليل عليّ دَمُونُ دَمُونُ إنا معشر يمانون

وَأنا لأهلنا محبون

ثم قال: ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر. فذهبت مثلاً، ثم قال:

خليلي لا في اليوم مَصْحَى لشاربٍ ولا في غدٍ إذ ذاك ما كان يُشربُ

ثم شرب سبعاً، فلما صحى آلى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمرًا ولا يدهن بدهن (طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأره، فلما جنه الليل رأى برقًا، فقال:

أَرَقْتُ لَبْرَقٍ بلبِلٍ أَهْلٍ يضيئ سناه بأعلى الجبلِ

أَتاني حديثٌ فكذَّبْتُهُ بأمرٍ تزعزعُ منه القَلَلُ^(١).

بقتل بني أسدٍ ربِّهم ألا كلُّ شيءٍ سواه جَلَلٌ^(٢).

فأين ربيعةٌ عن ربِّها وأين تميمٌ وأين الحَوَلُ^(٣).

ألا يحضرون لـدي بابـه كما يحضرون إذا ما أكل

وواضح أن هذا الخبر يخالف رواية الهيثم بن عدى السابقة في مقتل حجر والتي تذكر أن امرأ القيس كان مع أبيه في حربه لبني أسد وأنه فر حين هزمت كندة وقتل أبوه، فهو من منحولات ابن الكلبي. ومثله الخبر الذي ساقه ابن قتيبة، إذ يقول إن أباه طرده لما صنع في الشعر بفاطمة ابنة عمه ما صنع، وكان لها عاشقًا، فطلبها زمانًا فلم يصل إليها، وكان يطلب منها غرة، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان فقال قصيدته: (فقا نسبك من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ ذلك أباه

(١) القلل: قم الجبال.

(٢) جلل هنا: هين.

(٣) الحول: العبيد.

دعا مولى يقال له ربيعة، فقال له: اقتل امرأ القيس وائتني بعينيه، فذبح جؤذرا^(١)، فأتاه بعينيه. وندم حجر على ذلك، فقال: أبيت اللعن! إني لم أقتله، قال: فأتني به.. فرده إلى أبيه، فنهاه عن قول الشعر، ثم إنه قال قصيدته: (ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالي) فبلغ ذلك أباه فطرده، فبلغه مقتل أبيه بدمون^(٢). وواضح أن هذا الخبر يلتقي بسابقه ويكتمل بنفس أسلوبه فهل منتحل، صنع تعليقاً وتوضيحاً لبعض أبيات معلقته التي يذكر فيها صاحبته فاطمة ويذكر معها يوم دارة جلجل. ومثل هذين الخبرين ما قاله بعض الرواة من أن أباه طرده لتغزله ببعض نسائه.

والحق أن هذه الأخبار ظاهرة الانتحال هي وكل ما يتصل بها من أشعار يسوقونها على لسانه، وكأن ابن الكلبي وغيره من الرواة استلهموا ما تدل عليه أشعاره الصحيحة من أنه كان صبا بالشراب والصيد ومغازلة النساء، فلفقوا هذه الأخبار، وضمنوها بعض الأشعار. وفاتهم أنه عاش في عصر الوثنية وأنه كان أميراً من أسرة تفرض سيادتها على كثير من القبائل فلا عجب أن يحيا حياة لاهية لا تتورع عن الإثم.

على أن الدهر لم يلبث أن قلب لهذا الفتى العاكف على الصيد واللهو ظهر المجن، فإذا أبوه يقتل، وإذا هو موتور، لا بد له من أخذ ثأره على عادة العرب، ولا بد أن يجاهد في سبيل استرداد ملك آبائه وملك كندة قبيلته على بني أسد قتلة أبيه. ويظهر أن بني أسد خافوا العاقبة، فأرسلوا إليه - في رواية للخليل بن أحمد - وفداً للمفاوضة، وعرض عليه الوفد إحدى ثلاث: القصاص أو الفداء أو النظرة (الإمهال) حتى تضع الحوامل، فتعقد الرايات وتكون الحرب، فقال: "لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإني لن أعتاض به جماً أو ناقة، فأكتسب بذلك سبة الأبد، وفت العضد، وأما النظرة فقد أوجبتهما الأجنة في بطون أمهاتهما، ولن أكون لعطبها سبباً، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنة علقاً (دماً) ورويداً ينكشف لكم دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير، فنهضوا عنه^(٣)" وقد عرفوا أنه طالبهم.

(١) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية.

(٢) أنظر الشعر والشعراء ٥٤ / ١ وشرح شواهد المغنى للسيوطي ص ٦.

(٣) الأغاني ١٠٣ / ٩ وما بعدها.

ويلقانا قصص كثير عن طلبه لبني أسد، وأكثره مما رواه ابن الكلبي^(١)، إذ يزعم أنه ارتحل حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم النصر على بني أسد. وعلمت بنو أسد بما يدبر لهم، فارتحلوا ولجئوا إلى بني كنانة، فاختلطوا بهم. وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة، وهو يحسبهم بني أسد، فوضع السلاح فيهم، فأعلموه أنهم ليسوا طلبته. وكان بنو أسد قد عرفوا قدومه بمن معه، فرحلوا، فتبعهم حتى لحقهم، وقاتلهم، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم، وحجز الليل بينهم، فهربت بنو أسد، فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم، وقالوا له: قد أصبت ثأرك، وانصرفوا عنه. ومضى لوجهه حتى لحق حمير، فاستنصر أزد شنوءة فأبوا أن ينصروه، فنزل بقليل (أمير) يدعى مرثد الخير الحميري فأمدّه بخمسمائة رجل، وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من القبائل رجالاً، فسار بهم إلى بني أسد، ويقال فإنهم عادوا فتركوه، ويقال إنه لجأ إلى عمرو بن المنذر ابن ماء السماء وذكر ما بينهما من صهر فأجاره، وبلغ المنذر مكانه فطلبه، فهرب. وفي رواية إن المنذر ألح في طلبه ووجه الجيوش إليه فلجأ إلى الحارث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة، فأرسل إليه المنذر مائة من رجاله ينذره بالحرب إن لم يسلم امرأ القيس ومن معه من بني آكل المرار. فخرج امرؤ القيس على وجهه حتى نزل في أرض طيى وقيل بل نزل قبلهم على سعد بن الضباب الإيادي فأجاره، ثم تحول عنه إلى المعلى بن تيم الطائي، فأكرمه. وولي وجهه نحو عشيرة بني نبهان الطائية، فبذلت له من مالها، ثم خرج عنها فنزل بعامر بن جوين الطائي. وكان المنذر لا يزال يتبعه، فتحول عن طيى إلى رجل من بني فزارة يسمى عمرو بن جابر فدله على السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتيماء، فلجأ إليه. وهنا يزعم ابن الكلبي وغيره من الرواة أنه طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن جبلة الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر، واستودعه أهله وأمواله وما كان معه من سلاح. ومضى حتى انتهى إلى قيصر في القسطنطينية، وهو حينئذ جوستنيان فأكرمه ورفع منزلته، وضم إليه جيشاً كثيفاً. ولما فصل اندس إلى جوستنيان رجل من بني أسد يقال له الطماح فقال له: "إن امرأ القيس غوى عاهر، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يرسل ابتك ويواصلها، وهو قاتل في ذلك أشعارا يشهرها بها في العرب، فيفضحها

(١) الأغاني ٩/ ٩٠ وما بعدها.

ويفضحك. فبعث إليه القيصر حينئذ بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب، وقال له: إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة، واكتب إلى بخبرك من منزل منزل. فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها، فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سمي ذا القروح، وقال في ذلك:

لقد طمَح الطَّمَّاح من بَعْد أرضه لِيَلْبَسَنِي مما يَلْبَسُ أبُوساً^(١).

فلو أنها نَفْسُ تَمُوت سَوِيَّةً ولكنها نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفَساً

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضر بها، فقال:

رُبَّ خُطْبَةٍ مُسَحَّنِفِرَةٍ وَطَعْنَةٍ مُنْعَنْجِرَةٍ^(٢).

وَجَفَنَةٍ مُتَحَيِّرَةٍ حَلَّتْ بِأَرْضِ أَنْقَرَةٍ^(٣)

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة، فقبره هناك!"

وهذه الأخبار عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه ومصيره رويت في جملتها عن ابن الكلبي المتهم فيما يرويه، والتلفيق فيها بين واضح. ويمكن أن يكون لها أصل، تشهد به الحوادث، وهو أن يكون امرؤ القيس حاول عبثاً استرداد ملك آبائه، ولكنه مات دون تحقيق غايته. ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حاول اللجوء إلى الحارث بن جبلة الغساني وأنه أوصله إلى جوستنيان في القسطنطينية، غير أنه مات في الطريق. ومن المحقق أن قصة ثأر جوستنيان لشرفه منه قصة متحلة، نسجها القصاص حين وجدوه في شعره يفخر بمغامراته الغرامية، وكأنهم أرادوا أن لا يخلوه في القسطنطينية من ضرب من ضروب هذه المغامرات الجريئة، وقد تبادوا فجعلوه يدخل مع القيصر الحمام وقالوا إنه كان ينادمه، وإن ابنته نظرت إليه فعشقتة وواصلته.

والحق أن القصص لعب دوراً واسعاً في حياة امرئ القيس، بحيث طمست معالمها، سواء قبل مقتل أبيه أو بعده، ومن ثم ذهب طه حسين إلى أن حياته بتفاصيلها وبما تزعمه من ذهابه إلى قيصر

(١) يريد بالأبوس ما لبسه من الحلة المسمومة.

(٢) مسحنفرة: مسهبة، شعنجرة: سائلة.

(٣) جفنة متحيرة: ممتلئة طعاماً ودسماً.

وموته في رجوعه من عنده إنما هي تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي الذي ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك، وأخفق في مسعاه^(١). وفيما ذهب إليه طه حسين ضرب من المبالغة والخيال البعيد.

وإذا رجعنا إلى المؤرخين البيزنطيين لم نجد عندهم أي إشارة إلى امرئ القيص ابن حجر الكندي وزيارته لبيزنطة وطلبه النصره منها ضد المنذر بن ماء السماء، وقد ورد عند "بروكوبيوس" اسم شخص يدعى قيساً اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن سنة ٥٢٤ للميلاد، ويقال إن القيصر طلب منه أن يقود الجيوش ضد الفرس، وذكر "نونوسوس" أن جوستينيان كلفه بالسفارة لديه^(٢). ومن ثم ظن كوزان دي برسفال أن قيسا المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس^(٣)، وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية، وأكبر الظن أن هذا مجرد تشابه في الأسماء.

على أن بعض المصادر التاريخية اليونانية ذكرت في صراحة اسم شخص يدعى امرأ القيس كان من العرب التابعين لملوك الفرس، وقد جعل يغير على القبائل في شمالي الحجاز ويسيطر سلطانه عليها وقد استطاع أن يستولى على جزيرة يوتابه Iotabe - جزيرة تيران الحالية في مدخل خليج العقبة - ويطرد منها عمال المكوس من الروم، وعاد فرأى أن يصانع الروم، مخافة غزوهم له، فأرسل إلى بيزنطة أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد، ليفاوض قيصر في أن يعينه حاكماً على جنوبي الأردن وساحل خليج العقبة، ويمنحه لقب فيلارك. ونجح الأسقف في سفارته، ودعا القيصر امرأ القيس لزيارة عاصمته، وبالغ في إكرامه، وعاد إلى بلاده^(٤).

وواضح، مما تذكره تلك المصادر اليونانية عن هذا الأمير وأنه كان من العرب التابعين لملوك الفرس، أنه كان من اللخمين، ولعل من الطريف أن محمد بن حبيب يذكر في كتابه "المحبر" أن فيروز ملك الفرس (٤٥٧-٤٨٣ م) هو الذي نصب امرأ القيس بن المنذر اللخمي ملكاً، وإذا رجعنا إلى ملوك الحيرة في هذا التاريخ لم نجد بينهم من يتسمى بهذا الاسم، وفي ذلك ما يؤكد ما

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢١١ وما بعدها.

(٢) جواد على ٣/ ٢٦٥ وما بعدها.

(٣) أنظر جواد على في نفس الصفحة.

(٤) أنظر جواد على ٣/ ٢٦٧ وما بعدها.

تذكره المصادر اليونانية من أنه كان ملكاً في شمالي الحجاز، وكأنه بدأ كما تقول المصادر اليونانية موالياً للفرس، ثم استقل عنهم، وأصفي ولاءه للروم. ومر بنا في أخبار الحارث الكندي أنه استطاع أن يفرض سلطانه على القبائل العدنانية في الشمال، ومر بنا أيضاً أنه كان يغير في أواخر القرن الخامس على تخوم الروم، وكان يقود هذه الغارات ابنه حجر ومعد يكرب. وقد يكون في ذلك ما يدل على أن الحارث استطاع أن يقضي على امرئ القيس اللخمي في شمالي الحجاز وسواحل خليج العقبة، وكأنه قضى على اللخمين في غربي الجزيرة، ومر بنا أنه استطاع أن يخضع إمارة الحيرة لسلطانه؛ فكأنه قضى على دولتهم في الغرب والشرق، وإن كان ذلك لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما ظهر المنذر بن ماء السماء يمدد كسرى أنوشروان بجيوشه، ففقد على خصمه الكندي، وعادت الإمارة اللخمية الشرقية، أمام الإمارة الغربية فلم تعد، فقد دخلت أملاكها في ملك الغساسنة.

وإنما أطلعنا في بيان ذلك لنندل على أن أخبار امرئ القيس بن حجر الكندي اختلطت في ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمي^(١)، ومن هنا كنا نظن ظناً أن امرأ القيس الشاعر الكندي لم يزر قيصر بيزنطة، وكنا ندفع هذه القصة الطويلة التي نسجت حول مقتله. غير أننا لا نرتاب في أنه حاول أن يأخذ بثأر أبيه ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح. ولم يلبث أن مات، ولا نعرف بالضبط تاريخ موته، ويغلب أن يكون بين سنتي ٥٣٠ و ٥٤٠ فإن القبائل انتقضت على أبيه وأعمامه منذ سنة ٥٢٨ وهي السنة التي توفي فيها أو قتل جده الحارث.

(١) وبسبب من هذا الخلط قال هيار في ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية: عمل الإمبراطور جستنيان بنصيحة الحارث بن جبلة الغساني وإلى بادية الشام فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية حوالي عام ٥٣٠ م ليستعين به على افرس ومكث هذا الشاعر طويلاً بالقسطنطينية، ثم استعمل على الشام وعلى القبائل التي تعيش هناك على الحدود ومن ثم لقب بلقب فيلارك أي الوالي ولكنه توفي في أنقرة بين عامي ٥٣٠ و ٥٤٠ في أثناء رحيله لتولي منصبه.

ديوانه

طُبع ديوان امرئ القيس مراراً، وكان أول من طبعه دي سلان (De Slane) بباريس سنة ١٨٣٧ وقد أخرج من مخطوطتين لكتاب "دواوين الشعراء الستة" للشتيمري، وهي دواوين امرئ القيس والنابعة زهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة، ومعروف أن الشتيمري يحتفظ في شرحه لهذه الدواوين برواية الأصمعي، وبعد أن ينتهي منها في كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى. وقد نشر دي سلان الديوان باسم "نزهة ذوي الكيس وتحفة الأدباء في قصائد امرئ القيس" وجرّد نشرته من شرح الشتيمري.

وعنى المستشرق ألوارد (Ahlwardt) بنشر الدواوين الستة في سنة ١٨٧٠ ولم يأخذ برواية الشتيمري في ديوان امرئ القيس، فقد نشره من نسخة مروية عن السكري، وألحق به غير قصيدة ومقطوعة مما وجده منسوباً إليه في كتب الأدب والتاريخ. وطبع الديوان بعد ذلك من صنعة أبي بكر البطليوسي في مصر والهند وإيران. وأخرج حسن السندوبي في نشرة مرتبة على حروف المعجم ساق فيها كل ما وجده منسوباً إليه في الكتب الأدبية والتاريخية. كما أخرج مصطفى السقا مع بقية الشعراء الستة معتمداً على رواية الشتيمري في مجموعته التي سماها "مختار الشعر الجاهلي". وفي سنة ١٩٥٨ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم الديوان نشرة علمية جديدة بدار المعارف في القاهرة، واعتمد في نشرته على طائفة من المخطوطات، استطاع من خلالها أن يوزعه على رواياته. وبدأ برواية الأصمعي نقلاً عن نسخة الشتيمري التي تضم الدواوين الستة كما قدمنا والتي تحتفظ بسند وثيق يصل بين الشتيمري والأصمعي، فهي رواية موثقة، وهي تشتمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة بشرح الشتيمري، وأتبعها بتسع عشرة قصيدة ومقطوعة من رواية الطوسي وهي رواية كوفية، يلي ذلك زيادات من هذه الرواية نص الطوسي على انتحالها، وتقع في ٣٢ قصيدة ومقطوعة. ثم زيادات من نسخ السكري وابن النحاس المصري وأبي سهل عن بعض الكوفيين. وبذلك تبلغ قصائد الديوان ومقطوعاته مائة. وقد ألحق بها أبو الفضل تحريجاً دقيقاً. وإذا أخذنا نبحت في هذه الروايات لاحظنا تواً أن أعلاها في الثقة رواية الشتيمري عن الأصمعي،

فهي موصولة السند، وقد تلاها زيادات من روايات كوفية، وبمجرد النظر في تخريجها نجد كثيرًا منها شك فيه الرواة، ومعنى ذلك أن هذه الزيادات ليست وثيقة، ولا يصح الأخذ بمضمونها والاعتماد عليها، ومثلها الزيادات الأخرى عن السكري وابن النحاس وأبي سهل.

وإذن فالرواية التي ينبغي أن نناقش الديوان ونفحصه على أساسها هي رواية الأصمعي، وقبل مناقشتها ينبغي أن نلاحظ الشبه العامة التي تحوم حول شعر امرئ القيس، ولعل أهمها ما جاء على لسان الأصمعي نفسه إذ روي عنه أنه كان يقول: "كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتقًا سمعناها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء"^(١) وحماد في أشعاره يقابل ابن الكلبي في أخباره فأكثرها من منحوه. وفي الموشح للمرزباني: "يقال إن كثيرًا من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه، وعن الرياشي يقال إن كثيرًا من شعر امرئ القيس ليس له، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره"^(٢).

ولابد أن نضيف إلى ذلك قدم عهد امرئ القيس، فقد بعدت الرواية بينه وبين عصور التدوين، وقد أديل من قومه، ولم يعد لهم شأن منذ زوال دولة آبائه. ولابد أن نضيف أيضًا أنه كان في العصر الجاهلي كثير من الشعراء الذين تسموا باسم امرئ القيس، حتى يقال إنهم بلغوا ستة عشر، وقد تداخل شعرهم في شعره. وينبغي أن لا ننسى أبدًا أن رواية الأصمعي بشهادته غير وثيقة، لما دخلها من رواية حماد. وأما الرواة الآخرون غير الأصمعي يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال في شعر امرئ القيس حتى لنرى الطوسي يفرد لذلك فصلين في نسخته، فصل يذكر فيه القديم المنحول، وفصل يفرده للمستحدث المصنوع.

نحن إذن بإزاء شاعر زيفت أخباره وزيف عليه كثير من أشعاره، ولذلك ينبغي أن نتلقى رواية الأصمعي بغير قليل من الحذر والاحتراس، وأول ما يلقانا فيها معلقته، وهي بين المعلقات التي يقال إن حمادًا أول من رواها، غير أن روايته لها شُفعت بروايات أخرى لرواة موثقين فقد رواها المفضل الضبي ورواها الأصمعي إلا أنه أنكر منها أربعة أبيات، وهي التي تبتدئ بقوله:

(١) مراتب النحويين ص ٧٢.

(٢) الموشح ص ٣٤ وأنظر ابن سلام ص ١٣٤.

وَقَرَبَةَ أَقْوَامٍ جَعَلَتْ عَصَامَهَا عَلَى كَاهِلٍ مَنِي ذَلُولٍ مُرَحَّلٍ^(١).

لأنها لا تشاكل شعره، إنما تشاكل شعر الصعاليك، ومن ثم نسبها بعض الرواة إلى تأبط شراً^(٢). وتليها قصيدته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي) وهي من روح القصيدة السابقة، ولم يشك فيها الرواة، فهي وثيقة عند المفضل الضبي الأصمعي وأبي عبيدة، ولذلك كنا نثبتها له. أما القصيدة الثالثة (خليلي مراي على أم جندب) التي يقال إنه نظمها استجابة لزوجته أم جندب حتى تحكم بينه وبين علقمة الفحل أيها أشعر فإن القدماء شكوا فيها واتهموها هي وما يطوي فيها من قصة أم جندب^(٣) على أن من الرواة من لاحظ أنها اختلطت بقصيدة على وزنها ورويها لعلقمة بن عبدة^(٤)، ولعل هذا هو الذي جعل بعض الرواة يصنع قصة المعارضة وأن أم جندب حكمت بين الشعارين، غير ملاحظين أن علقمة كان يعيش في أوائل القرن السابع، فهو ليس من معاصري امرئ القيس.

والقصيدة الرابعة (سمالك شوق بعد ما كان أقصراً) تصف رحلته إلى قيصر وصفاً مسهباً، ويكفي ذلك لردّها لأن كل ما يتصل بهذه الرحلة مما وضعه ابن الكلبي وأضرابه. وشك الأصمعي نفسه في القصيدة الخامسة (أعنى على برق أراه وميض) وقال إنها تنسب في بعض الروايات لأبي دؤاد الإيادي^(٥). ويمكن أن نقبل القصيدة السادسة * غشيت ديار الحي بالبكرات) وربما كانت مما قاله بعد مقتل أبيه. أما القصيدة السابعة (ألا إن قومًا كنتم أمس دونهم) وهي في مديح عوير بن شجنة التميمي فلم يروها الطوسي بين ما وراه عن المفضل الضبي^(٦)، ولذلك كنا ندفعها لأنها لم تثبت فيما يظهر عند المفضل. وشك أبو عبيدة في القصيدة الثامنة (لمن طلل أبصرته

(١) عصام القرية: الحبل الذي تحمل به، مرحل: تعود الرحلة.

(٢) أنظر ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف) ص ٣٧٢.

(٣) الموشح ص ٣٠.

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٨١ وأنظر كتاب الخيل لأبي عبيدة ص ١٣٦.

(٥) الديوان ص ٧٢.

(٦) الديوان ص ٣٩٧.

فشجاني) وقال إنها محمولة عليه^(١). والقصيدة التاسعة (قفانك من ذكرى حبيب وعرفان) تذكر خشبات كان يحمل عليها في مرضه، فهي تتصل بقصة رحلته إلى قيصر، وهي لذلك لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها. والمقطوعة العاشرة (دع عنك نهبا صحيح في حجراته) قيلت في مديح نبهاني أجاره في أثناء طوافه في القبائل ومطاردة المنذر له وربما كانت صحيحة. والقصيدة الحادية عشرة (أرانا موضعين لأمر غيب) جيدة، وهي مما رواه الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء^(٢). أما القصيدة الثانية عشرة (أماوي هل لي عندكم من معرس) فقد روى أبو عمرو الشيباني أنها لبشر بن أبي خازم الأسدي^(٣). والقصيدة الثالثة عشرة (أما على الربع القديم بعسعسا) تشير بعض أبياتها إلى قصة الحلة المسمومة، ولذلك كنا نرفضها. ويمكن أن نقبل القصيدة الرابعة عشرة التي نظمها في مديح سعد بن الضباب أفيادي حين أجاره والتي يستهلها بقوله (لعمرك ما قلبي إلى أهله بحر) وهي مما أثبت له الأصمعي وأبو عبيدة والمفضل جميعا. وكذلك يمكن أن نقبل المقطوعة الخامسة عشرة (لمن الديار غشيتها بسحام) وهي في عتاب سبيع بن عوف ومما قاله بعد مقتل أبيه.

أما المقطوعة السادسة عشرة (يا دار ماوية بالحائل) فقد أنكرها الطوسي وقال عن أحمد بن حاتم إنه لم يجد أحدا من الرواة يعرفها^(٤). ولا ريب في أن المقطوعة السابعة عشرة (رب رام من بني ثعل) محمولة عليه، لأنها تصف عمرو بن المسيح الطائي وروميته للصيد، وكان من أرمى العرب له، وزمنه متأخر عن زمن امرئ القيس، إذ وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن وفد عليه من العرب^(٥). والمقطوعة الثامنة عشرة (يا هند لا تنكحي بوهة) أنكر الأمازيغي نسبها إليه، وقال إنها لامرئ القيس بن مالك الحميري^(٦). أما المقطوعة التاسعة عشرة (ألا قبح الله البراجم كلها) التي نظمها في هجاء قبائل من تميم حين خذلت عمه شريحيل في يوم الكلاب فقد كان ابن

(١) الديوان ص ٣٩٨.

(٢) الديوان ص ٤٠٢.

(٣) الديوان ص ٤٠٤.

(٤) الديوان ص ٤١١.

(٥) الاشتقاق لابن دريد (طبعة جوتنجن) ٢/ ٢٣٢.

(٦) معجم الشعراء ص ١٢ وأنظر الديوان ص ٤١٣.

الأعرابي لا يعرفها^(١). أما المقطوعة رقم ٢٠ (إن بني عرف ابتنوا حسبا) التي قالها في مديح عوير بن شجنة فيمكن أن تكون صحيحة. وأما المقطوعة رقم ٢١ (والله لا يذهب شيخني باطلا) فأغلب الظن أنها منتحلة لأنهم لا يروون أنه قالها حين بلغه مقتل أبيه ومر بنا في رواية الهيثم بن عدي أنه كان حاضرا مقتله. وقد أنكر الأصمعي المقطوعة رقم ٢٢ (ألا تكن غبل فمعزى)^(٢). ويمكن أن تكون المقطوعة رقم ٢٣ (ألا يا لهف هند إثر قوم) التي يقال إنه نظمها حين أخطأ بني أسد وأوقع ببني كنانة صحيحة، ومثلها المقطوعة رقم ٢٤ التي يمدح فيها المعلي الطائي والمقطوعة الخامسة والعشرون وأختها السادسة والعشرون، وهما مما نظمهما في أثناء مطاردة المنذر له. أما المقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هطلاء فيها وطف) فمما رواه الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء عن ذي الرمة^(٣)، وهي لذلك من شعره الوثيق، أما الثامنة والعشرون التي تدور على إجازة الشطور بينه وبين التوعم الإشكري، بحيث يقول امرؤ القيس شطرا ويتم البيت التوعم فأغلب الظن أنها من صنع الراة، ولعل اتهامها هو الذي جعل الطوسي لا يرويها بين ما أسند روايته إلى الراوي الثبت المفضل الضبي.

وإذن لا يبقى صحيحا من رواية الأصمعي سوى القصيدتين الأوليين، وهما مطولتا، ومثلها في الصحة والثقة القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون لأنها رويتا عن أبي عمرو بن العلاء، وتظل بعد ذلك المقطوعات أرقام ٦، ١٠، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦ قابلة لأن تكون صحيحة. على أن كثرتها الكثيرة نظمت - إن صحت - بعد مقتل أبيه، يتعرض فيها لمن أجاروه ومن ردوه، وقد رويت طائفة منها على لسان ابن الكلبي في أثناء حديثه الذي رواه له صاحب الأغاني عن طلب امرئ القيس لبني أسد واستعدائه القبائل عليهم، ولذلك قلنا إنها يمكن أن تكون صحيحة. وكأنما الثابت الصحيح له إنما هو المعلقة أو القصيدة الأولى في ديوانه، وتاليتها، ثم ما أنشده أبو عمرو بن العلاء، أو بعبارة أخرى القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون.

(١) الديوان ص ٤١٤.

(٢) الديوان ص ١٣٧.

(٣) الديوان ص ١٤٤.

شعره

حاول طه حسين أن يرد شعر امرئ القيس جميعه، لأنه يمّني من كندة وشعره قرشي اللغة، وقد مر بنا في غير هذا الموضوع أن كندة إن كانت يمنية الجنس فقد كانت عدنانية اللغة، كما مر بنا أن لغة قرش هي التي سادت وزاعت منذ أوائل العصر الجاهلي على لسان جميع الشعراء الشماليين سواء منهم من ينتسب إلى القبائل العدنانية ومن ينتسب إلى القبائل اليمنية، وقد أسلفنا أن أشعاره وأخباره دخلها وضع كثير. غير أن هذا كله لا ينتهي بنا إلى إنكار شعره جملة، وقد رأينا أننا لم نبق منه إلا على قلة قليلة.

ولعل أول ما يلاحظ على هذه الأشعار القليلة أنها تنقسم قسمين واضحين: قسماً نظمه قبل مقتل أبيه وقسماً نظمه بعد مقتله. أما القسم الأول فلا يعدو المعلقة، والمطولة الثانية في ديوانه (الأعم صباحاً أيها الطلل البالي) وهما جميعاً مما رواه الأصمعي والمضل الضبي وأبو عبيدة كما يتبين من تخريجهما في طبعة الديوان بدار المعارف. وإذا رجعنا إلى المعلقة وجدنا فيها جزءاً خاصاً بوصف البرق والمطر والسيول، ونجد نفس الموضوع في القطعة السابعة والعشرين التي رواها أبو عمرو بن العلاء عن ذي الرمة. ولعل في ذلك ما يؤكد صحة هذا الجزء على الأقل. ونحن نعرف أن امرأ القيس شب في ديار بني أسد بالقرب من تيماء^(١)، وأن عبيد بن الأبرص كان يعاصره، وقد اشتهر بين الرواة بوصفه للمطر وإحسانه فيه^(٢). واجتماعهما على هذا الوصف دليل بين على صحة ما ينسب إلى امرئ القيس منه.

ومعنى ذلك أن المعلقة تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها إلى امرئ القيس، وهو يستهلها بقوله:

قفاً نَبَكٍ من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسقط اللوى بين الدخول فحوْمَلٍ^(٣).

(١) لعل من أكبر الدلالة على ذلك الأمكنة التي يذكرها في معلقته فجميعها من منازل بني أسد.

(٢) ابن سلام ص ٧٦.

(٣) السقط: منقطع الرمل، واللوي حيث يلتوي ويرق. وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في صلابة من الأرض، والدخول وحوْمَل: موضعان.

وقد عدَّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيب والمنزل، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفسوا عنه، وهو غارق في ذكرياته وبكائه وإرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالاً سريعاً يقص علينا مغامراته مع النساء، وكأنه يريد أن يستثير صاحبتة فاطمة وأن يزرع الغيرة في قلبها، فهو يذكر لها بعض صواحيبه اللائي أبكىه وبرح به جهن مثل أم الحويرث وأم الرباب، ثم يفيض في وصف يوم عزيزة مصوراً كيف كان ينال منها وكيف كانت تدل عليه أحياناً، وفي أثناء ذلك يتعهر ولا يتستر، فيقول لعنيزة بيته المشهور:

فَمَثَلِكِ حُبِّي قَدْ طَرَقْتُ وَمَرْضِعاً فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَنَائِمٍ مُغِيلٍ^(١).

ثم يعود فيبث فاطمة حبه مصوراً دلالها، ومعاتباً لها عتاباً رقيقاً، في تلك الأبيات البديعة:

أَفَاطَمَ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدْلِيلِ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ صَرْمِي فَأَجْهَلِي^(٢).

وَإِنْ كُنْتُ قَدْ سَاءَتْكَ مَنِي خَلِيفَةٌ فَسَلِّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلٍ^(٣).

أَغْرَكَ مَنِي أَنْكَ حَبِكَ قَاتَلِي وَأَنْكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ إِلَّا لَتَقْدَحِي بِسَهْمِيكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلٍ^(٤).

وما يلبث أن يرجع إلى استشارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع من كني عنها بيضة خدرٍ لا يرام خباؤها، مصوراً كيف اقتحم إليها الأهوال والأحراس وكيف انتحى بها ناحية من الحي يتبادلان فيها الصباة والغرام، يقول:

وَبَيْضَةُ خَدْرِ لَا يَرَامُ خَبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ مِنْ هُوَ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ^(٥).

(١) التنائيم: جمع تقيمة وهي العوذة تعلق على الصبي، المغيل: المرضع.

(٢) بعض هذا التدليل: أي كفي عن بعضه، وأزمنت: عزمت، وأجھلي: من التجميل وهو ترك ما يقبح.

(٣) سلى ثيابي من ثيابك: انزعني من أمرك، وتنسل: تسقط.

(٤) ذرفت العين: سال دمعها، الأعشار: القطع، يقول؛ ما بكيت إلا لتجرحي قلباً مكسراً.

(٥) شبه صاحبتة بالبيضة لبياضها ورقتها.

تجاوزتُ أحراساً وأهوالَ مَعْشِرٍ	على حِراسٍ لو يُشْرونَ مَقْتَلِي ^(١) .
إذا ما الثُّرَيَّا في السماءَ تعرَّضَتْ	تعرَّضَ أثناءَ الوشاحِ المِفْصَلِ ^(٢) .
فجئتُ وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها	لدى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ الْمُتَفَضَّلِ ^(٣) .
فقلتُ يمينُ الله مالِكُ حِيلَةٍ	وما إنْ أرى عنكَ العِمَايَةَ تَنْجَلِي ^(٤) .
خرجتُ بها تمشي تجرُّ وراءنا	على أثَرِنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مَرَحِلِ ^(٥) .
فلما أَجَزْنَا ساحةَ الحَيِّ وانتحى	بنابِطٍ حَقْفٍ ذِي رُكَّامٍ عَقَنْقَلِ ^(٦) .
إذا التفتتُ نحوي تَضَوَّعَ رِيحُها	نسِيمَ الصَّبَا جاءتْ بَرِيًّا الْقَرْنَفَلِ ^(٧) .
إذا قلتُ هاتي نَوِّليني تمايلتُ	عليَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رِيًّا الْمُخْلَخَلِ ^(٨) .

فهو يذكر خدرها وأحراسها ومنعتها، وكيف وصل إليها وقد استعدت للنوم وما كان بينه وبينها من حوار، وكيف أطاعته وخرجت معه من الحي إلى مكان بعيد لا تراهما فيه العيون، وكيف كانت تعفي آثار أقدامهما بأذيال ثوابها الموشى، واسترسل يصف محاسنها ومفاتن جسدها وأطرافها، مصوراً كيف تستصبي الرجال وتعبث بقلوبهم.

(١) يشرون: يظهرون.

(٢) يقول: تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للمغيب فأرتك جانباً منها على نحو ما ترى من جانب الوشاح حين يتلقات بناحية منه، والمفصل: الذي جعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة.

(٣) نضت: نزعت: اللبسة: هيئة اللباس. المتفضل: اللابس ثوباً واحداً.

(٤) العماية: الغواية والجهالة.

(٥) المرط: إزار من خز، المرحل: الموشى.

(٦) أَجَزْنَا: قطعنا، والساحة الفناء. والحقف: المعوج من الرمل، وركام: بعضه فوق بعض، وعقنقل: منعقد متداخل. والواو في وانتحى زائدة لأنها جوانب لما.

(٧) تَضَوَّعَ: انتشر. الريا: الرائحة.

(٨) هَضِيم: ضامر، الكشحك الخاصرة، وريا المخلخل: أي أن موضع الخلخال من ساقها ممتلئ.

ومن يقرأ هذه المغامرات القصصية عند امرئ القيس تغد على ذهنه توار مغامرات ابن أبي ربيعة في غزله، لا من حيث حوار مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب، بل أيضًا من حيث وصف الديب إليهن في الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور ذلك رائيته المشهورة:

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكَّرٌ غَدَاةً غَدِ أُمِّ رَائِحٍ فَمُهَجَّرٌ

وقد لاحظ طه حسين هذا التشابه في غزل الشاعرين، فأنكر ما ينسب إلى امرئ القيس من هذا الغزل القصصي الصريح وقال إنه انتحل انتحالاً، انتحله بعض القصاص على غرار ما وجدوا منه عند ابن أبي ربيعة^(١). وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن أبي ربيعة قد عرف غزل امرئ القيس وتأثر به كما تقضي طبيعة التأثير إذ تأثر اللاحق بالسابق، ومن التحكم أن نرفض ذلك، ولعل خيرًا من هذا الرفض أن نقارن بين صناعي الشاعرين في وصف مثل هذه المغامرات وننفذ إلى ما بينهما من فروق، فكلاهما حقًا يتحدث عن زيارته لصواحيبه وما يتجشم فيها من أهوال، وما يكون بينه وبينهن من هو، غير أننا نلاحظ عند عمر كما تصور ذلك رائيته تفننًا في رقة النجوى وفي كلف صواحيبه به، بينما يمضي امرؤ القيس في وصف مغامراته مع النساء وصفًا حسيًا حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى صورة من التهتك الخلقي الفاحش، على نحو ما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن قضية الانتحال.

وكل ما يمكن أن يقال أن هذا المنحى من القصص الغرامي منحى قديم بدأه امرؤ القيس ونماه من بعده الأعشى^(٢)، ثم كان العصر الأموي فتعلق به عمرو بن أبي ربيعة وأضرابه. ولعل من الطريف أنه لا يتضح عند امرئ القيس في المعلقة وحدها، فمثلها المطولة (ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي) فإنها تذهب نفس المذهب الذي رأيناه في المعلقة، وهو يفتتحها بالوقوف على أطلال سلمى، ثم يفيض في وصف مغامراته وعبثه الفاجر مع بعض النساء بالضبط على نحو ما رأينا في المعلقة، يقول:

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٢١.

(٢) ابن سلام ص ٣٥.

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها
فقلت: سباك الله إنك فاضحى
فقلت: يمين الله أبرح قاعداً
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا
فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعلها
يغط غطيظ البكر شد خناقهُ
أيقتلني والمشرقي مضاجعي
سمو حباب الماء حالاً على حال^(١).
ألست ترى الشمار والناس أحوالي^(٢).
ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
هصرتُ بغصن ذي شماريخ ميال^(٣).
ورضت فذلت صعبة أي إذلال^(٤).
عليه القتام سيئ الظن والبال^(٥).
ليقتلني والمرء ليس بقتال^(٦).
ومسنونة زرق كأنياب أغوال^(٧).

وكان امرأ القيس هو الذي سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح، وتبعه الشعراء من بعده وإن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه في تشبيهه الذي يودعه مقدمات قصائده وما يطوي فيه من بكاء ولوعة.

(١) سموت إليها: يريد نهضت إليها شيئاً فشيئاً لئلا يشعر أحد بمكاني فكنت مثل حباب الماء يعلو بعضه بعضاً في رفق ومهل.

(٢) سباك: باعدك وأذهب عقلك.

(٣) تنازعنا: تبادلنا، وأسمحت: انقادت وسهلت. وهصرت: جذبت: وأراد بالغصن قامتها وبالشماريخ شعرها شبيهه بشماريخ النخل لكثرتة وغازاته.

(٤) رضت: أذلت، وذلت: لانت.

(٥) القتام: الغبار يريد أن بعلها ساء ما رآه ميلها إليه فأصبح كأنه مغبر كاسف الحال.

(٦) يغط: يردد صوتاً كصوت البكر وهو الشاب من الإبل يشد حبل في خناقهِ، فيسمع له غطيظ، كأنه يريد أن يقول إنه يردد صوتاً كصوت البعير المختنق.

(٧) المشرقي: السيف، والمسنونة الزرق: السبام.

ورجع في معلقته بعد حديثه عن بيضة الخدر يصف لصاحبه شقائه بحبها وأنه لا يستمع فيه إلى نصيحة ناصح، ولا إلى عدل عاذل، ويصور كيف يقتحم إليها الليل المخوف، ويسترسل في وصفه فيقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلي^(١).
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناءً بكلكل^(٢).
ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي
بصبح وما الإصباح فيك بأمثل^(٣).
فيالك من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شدت يذببل^(٤).
كأن الشرا علقّت في مصامها
بأمراس كتان إلى صم جندل^(٥).

فهو يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهي، ويحس كأنه طال وأسرف في الطول حتى ليظن كأن نجومه شدت بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهي لا تتحرك ولا تزول، كأنها سمّرت في مكانها، فهي لا تجرى ولا تسير، وقد ردد الشعراء بعده هذا المعنى طويلاً. ونراه يخرج منه إلى وصف فرسه وصيده ولذاته فيه، وكأنه يريد أن يضع بين يدي صاحبه فروسيته وشجاعته ومهارته في ركوب الخليل واصطياد الوحش، يقول:

وقد أعتدى والطير في وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكل^(٦).
مكر مفر مقبل مدبر معاً
كجلمود صخر حطه السيل من عل^(٧).

(١) السدول: الستور.

(٢) تمطى: امتد. بصلبه: بظهره. وفي رواية بجوزه والجوز: الوسط. والكلكل: الصدر، وناء: نهض.

(٣) أنجلي: انكشف. وما الإصباح بأمثل: يريد أنه مهموم في الليل وفي الصباح.

(٤) مغار: شديد. يذببل: جبل.

(٥) المصام: مكانها الذي لا تبرحه، والأمراس: جمع مرس وهو الحبل. والجنادل: الحجارة الكبيرة، والصم: جمع أصم وهو الصلب الشديد.

(٦) الكونات: المواضع التي تأوى إليها الطير ليلاً، والمنجرد: الفرس قصير الشعر، الأوابد: الوحش، هيكل: ضخم.

(٧) الجلمود: الصخرة الصلبة، حطه: اسقطه.

كَمَا زَلَّتِ الصَّفَوَاءُ بِالْمُنْتَزِلِ ^(١) .	كُمَيْتٌ يَزِلُّ اللَّبَدَ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ
أَثَرُنَ غَبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ ^(٢) .	مَسَحَ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى
إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيهِ غَلِيٍّ مَرَجَلِ ^(٣) .	عَلَى الْعَقَبِ جَيَّاشٍ كَأَن اهْتِزَامَهُ
وَيُلَوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ ^(٤) .	يُطِيرُ الْغَلَامَ الْخَفَّ عَنْ صَهْوَاتِهِ
تَقْلُبُ كَفَيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ ^(٥) .	دَرِيرٌ كَخُذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرِهِ
وَارْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَنْفَلِ ^(٦) .	لَهُ أَيُّطَلَا ظُبِيٍّ وَسَاقَا نَعَامَةٍ
مَدَاكَ عَرُوسٍ أَوْ صَرَايَةٍ حَنْظَلِ ^(٧) .	كَأَنَّ عَلَى الْكَتْفَيْنِ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى

وهو وصف رائع لفروسه الأشقر، فقد صور سرعته تصويراً بديعاً، وبدأ لجعله قيّداً لأوابد الوحش إذا انطلقت في الصحراء فإنها لا تستطيع إفلتاً منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها. وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكر في الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر في آن واحد، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال، وإن لبده لشدة حركته ليسقط عنه وينزل كما تنزل الصخرة من منحدر بعيد. وهو يصب الجرى صباً، ويسبق كل الخيل سبقاً، لا يثير غباراً ولا نفعاً، إنما هو أن يحركه راكبه فإذا به يغلى غليان القدر لا ينى ولا يفتر، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات

(١) الكميت: الفرس الأحمر في سواد. يزل: يسقط، حال المتن: موضعه من وسط الظهر، الصفواء: الصخرة الملساء، المنتزل: النازل عليها.

(٢) مسح: عداً يصب الجرى صبا، السابحات: الخيل المسرعة. الونى: الضعف والفتور. الكديد: ما غلظ من الأرض، المركل: الذي ركلتها الخيل بحوافرها. يريد أن حوافره لا تكاد تمس الأرض، وهي لذلك لا تثير بها غباراً كما تصنع السابحات.

(٣) العقب: جرى بعد جرى، اهتزامه: صوت جوفه عند الجرى، الحمى: الغلى، المرجل: القدر.

(٤) يطير: يسقط، الخف: الخفيف، والصهوات: موضع اللبد من ظهره، ويلوى بأثواب العنيف: يذهب بها. العنيف: الأخرق، المثلث: الذي لا يحسن الركوب.

(٥) درير: سريع، خيط موصل: وصلت أجزاؤه، أمره: أمضاه.

(٦) السرحان: الذئب، التنفل: الثعلب والإرخاء: العدو، التقريب: القفز.

(٧) مداك العروس: حجر تسحق عليه طبيبها فيبرق، شبه به الفرس في بريقه. الصراية: حنظلة صفراء براقه.

عليه، وما أشبهه في سرعة انطلاقه بلعبة الحذروف الدوارة التي يلعب بها الصبيان، إذ يصلونها بخيط ويسرعون في إمرارها إسراعاً. وهو فرس ضامر كأنه ظبي نافر، فله خاصراته النحيلتان، بل لكأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصلبتان، وهو يهوى في الأرض كأنه الذئب الفزع، ويقفز كأنه الثعلب الخائف، وإذا اعترضك خيل إليك للمعانه وبريقه أنك تنظر إلى مداك عروس أو صراية حنظل. واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده، فوصف سرباً من بقر الوحش عن لهم في الصحراء مصوراً كيف قيده فرسه، فإذا هو يلحق بأوائله تاركاً وراءه ما تخلف منه. فصادوا ما ابتغوا، وأخذ الطهاة يعدون لهم طعامهم بين مشوي ومطبوخ. وانتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التي ألت بمنازل قومه بني أسد بالقرب من تيماء في شمالي الحجاز، يقول:

أَحَارِ تَرَى بَرْقًا كَأَنَّ مِضْهَ	كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مَكَلَّلٍ ^(١) .
يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ	أَهَانَ السَّلِيْطَ فِي الذُّبَالِ الْمَفْتَلِ ^(٢) .
قَعَدْتُ لَهُ وَصَحْبَتِي بَيْنَ حَامِرٍ	وَبَيْنَ إِكَامٍ بَعْدَ مَا مُتَأَمَّلٍ ^(٣) .
وَأَضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ عَنْ كُلِّ فَيْقَةٍ	يَكُبُّ عَلَى الْأَذْقَانِ دَوْحَ الْكَنْهَبِلِ ^(٤) .
وَتِيَاءٌ لَمْ يَتْرِكْ بِهَا جَذْعَ نَخْلَةٍ	وَلَا أَطْمًا إِلَّا مَشِيدًا بَجَنْدَلٍ ^(٥) .
كَأَنَّ طَمِيَّةَ الْمُجَيْمِرِ غُدُوَّةٌ	مِنَ السَّيْلِ وَالْغَثَاءِ فَلَكَّةٌ مِغْزَلٍ ^(٦) .
كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَدَقِّهِ	كَبِيرٌ أَنَاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلٍ ^(٧) .

(١) حار: ترخيم حارث يعني يا حارث، وميض البرق: لمعانه. الحبي من السحاب: المتراكم، وكذلك المكمل، وقيل الحبي: الداني من الأرض.

(٢) السنا: الضوء، السليط: الزيت، الذبال: الفتائل، وأهانه هنا: أكثر منه، ويروي أmaal بمعنى رعى، وهي أجود.

(٣) حامر وإكام: موضعان، بعد ما متأمل: تأملته من مكان بعيد.

(٤) الفيقة: ما بين الحلبتين: يريد أنه يسح ثم يسكن ثم يسح. وعن: معناها هنا بعد، يكب على الأذقان: يسقط ويلقى على الوجه، الكنهبل: ما عظم من شجر العضاء، والدوح: جمع دوحة وهي الشجرة كثيرة الورق والأغصان.

(٥) الأطم: البيت.

(٦) طمية: جبل، المجيمر: أرض لبني فزارة، الغثاء: ما يحمل السيل من فتات الشجار. وفلكة المغزل: ما استدار فوق رأسه.

وَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الْغَيْطِ بَعَاةً
نَزُولَ الْيَمَانِي ذِي الْعِيَابِ الْمَخُولِ^(١).
كَانَ سِبَاعًا فِيهِ غَرْقَى غَدِيَّةٌ
بَارِجَاتُ الْقَصَوَى أَنَايِشٌ عُنْصَلُ^(٢).
عَلَى قَطْنٍ بِالشِّيمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ
وَأَيْسَرُهُ عَلَى السُّتَارِ فَيَذْبُلُ^(٣).
أَلْقَى بِسَيَّانٍ مَعَ اللَّيْلِ بَرَكَهُ
فَأَنْزَلَ مِنْهُ الْعَصْمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ^(٤).

وقد استهل القطعة بوصف وميض البرق وتألقه في سحب متراكم، وشبه هذا التآلق واللمعان بحركة اليدين إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوءها بما يمددها من زيت كثير. ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام، والسحاب يسح سحاً، حتى لتقتلع سيوله كل ما في طريقها من أشجار العضاء العظيمة. وتلك تيماء لم تترك بها نخلاً ولا بيتاً، إلا ما شيد بالصخر، فقد أجتثت كل ما مرت به وأتت عليه من قواعده وأصوله. وهذا طمية جبل المجيمر التفت به السيول وما تحمل من غثاء، حتى لكأنه فلكة مغزل. وذاك أبان بما غطاه من هذا السيل والغثاء يشبه شيخاً ملتفاً في كساء مخطط. وقد ألقى بصحراء الغيظ ثقله فنشر به من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التي ينشرها التاجر اليمني حين يعرضها للشراء. وما زالت السيول تفيض حتى علمت آجام السباع فغرقت في لججها وتراءت رءوسها للعين كأنها جذور البصل البري. وقد تراكم السحاب وملاً أقطار السماء حتى ليظن مبصره أن أيمنه على قطن جبل بني أسد وأيسره على الستار ويذبل مما يلي بلاد البحرين، وعم المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التي كانت مستقرة به.

(١) أبان: جبل، أفانين: ضروب الودق: المطر، البجاد: كساء مخطط، ومزمل: صفة لكبير أناس أى أنه متدثر بثيابه ملتف بها.

(٢) الغيظ: موضع، البعاع: الثقل، العياب: الحقائق، المخول: كثير المتاع والعلمان الذين يصحبونه.

(٣) غدية: حين يصبح الناس، وأنايش العنصل: جذور البصل البري.

(٤) قطن: اسم جبل في ديار بني أسد، الشيم: النظر إلى البرق والمطر. الستار ويذبل: جبالان.

(٥) سيان: جبل، والبرك: الصدر، العصم: الأوعال.

ولامرئ القيس مقطوعة في الغيث والسيل تلتقي في كثير من معانيها وصورها بهذه القطعة، وهي ذات الرقم ٢٧ في ديوانه، وقد مر بنا أن أبا عمرو بن العلاء رواها عن ذي الرمة، وهي تمضي على هذا النحو:

دِيمَةٌ هَطْلَاءٌ فِيهَا وَطْفٌ	طَبَقُ الْأَرْضِ تَحْرِي وَتَذَرُ (١).
تَخْرُجُ الْوَدَّ إِذَا مَا أَشْجَذَتْ	وَتَوَارِيهِ إِذَا مَا تَشْتَكِرُ (٢).
وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفًا مَاهِرًا	ثَانِيًا بَرَثْنَهُ مَا يَنْعَفِرُ (٣).
وَتَرَى الشَّجَرَاءَ فِي رَيْقِهِ	كَرْءَوْسٍ قَطَعَتْ فِيهَا الْخُمُرُ (٤).
سَاعَةً ثُمَّ انْتَحَاهَا وَابِلٌ	سَاقِطُ الْأَكْنَفِ وَاهٍ مِنْهُمْ (٥).
رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى	فِيهِ شُؤْبُوبٌ جَنُوبٌ مُنْفَجِرُ (٦).
ثَجَّ حَتَّى ضَاقَ عَنْ آذِيهِ	عَرَضُ خَيْمٍ فَجَفَافٍ فَيَسِرُ (٧).
قَدْ غَدَا يَحْمِلُنِي فِي أَنْفِهِ	لَا حَقَّ الْإِطْلِينَ مَحْبُوكٌ مَمَرُ (٨).

-
- (١) الديمة: المطر الدائم، هطلاء: كثرة المطل، والوطف: الدنو من الأرض. طبق الأرض: تطبقها وتعمها لكثرة مطرها. تحري: تعمد إلى الأمكنة وتثبت فيها. وتذر: يكثر ماؤها وترسل درتها.
- (٢) الود: الوند، أشجذت: أقلعت وسكنت. تشتكر: تحتفل ويكثر مطرها. وقيل الود اسم جبل.
- (٣) خفيفاً ماهراً: يريد مسرعاً في عدوه. وبرثن الضب: كالإصبع للإنسان. وما ينعفر: لا يصيبه العفر والتراب، يقصد أنه لا يلصق بالتراب لخفة عدوه.
- (٤) الشجرَاء: الأرض ذات الشجر الكثير، ريق المطر: أوله، يريد أن المطر يغمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها، فتترأى كأنها رءوس قطعت وفيها الخمر وفيها العمائم.
- (٥) انتحاه: قصدها. وابل: مطر غزير، ساقط الأكناف: دان من نواحي الأرض. واء: متخرق، منهمر: منسكب.
- (٦) راح: عاد بالمطر في آخر النهار. تمرية: تحركه وتديره. الشؤبوب: دفعة المطر، والجنوب: ريح. منفجر: سائل.
- (٧) ثج: سال. الآذى: الموج. وخيم وجفاف ويسر: مواضع.
- (٨) يحملني في أنفه: يريد في أنف المطر أي أوله. لاحق الإطلين: فرس ضامر الكشحين، محبوك: موثق الخلق ومثله ممر، وأصله من الحبل الممر، وهو المحكم الفتل.

وهو يصور في هذه المقطوعة منظراً يماثل المنظر السابق، فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض من حوله، وهو يدر لها ويدنو منها بأهدابه، وحيناً يـُقْلَع فتبدو الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتوارى عن الأنظار. وتترع القيعان فيخرج الضب من جحره يعدو عدواً سريعاً لما يرى من كثرة المطر. وما تزال السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها، فتتراءى كأنها رءوس معمرة قطعت في ساحة حرب عنيفة. وظل المطر على هذا الأنصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء، فقد ألفت السحب بوبلها وأثقالها تستدرها ريح الصبا الشمالية. ولم تلبث ريح الجنوب أن هبت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خيم وجفاف ويسر.

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التي كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه، وهي التشبيب، والغزل القصصي الصريح، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول. فتلك هي الموضوعات التي تستغرق أشعاره الأولى. وتجمعها المعلقة جميعاً، بينما تقف المطولة الثانية (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي) عند التشبيب والقصص المادي، ووصف الوحش والفرس، وهو في أثناء وصفها يعرض لصيده وما يجده فيه من لذة ومتاع وهو.

وكتب لامرؤ القيس أن لا تجرى حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذي يعد لاقتناص اللذات في أتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها وتملي مناظر الطبيعة، فقد قتل أبوه، وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عاثرة في الأخذ بثأر أبيه ورجع سلطان كندة على بني أسد، وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال في مطولته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي):

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخلي كرى كرة بعد إجفال^(١).

ولعله نظم هذه القصيدة في إبان الدورة الثانية من حياته.

(١) أسبأ: اشترى. الزق: دن الخمر الروى: المملوء، الإجفال: الانهزام في سرعة.

ونحن لا ننتظر منه في هذه الدورة سوى الحزن والألم العميق، فهذا أبوه حجر يقتل وهو لاء أعمامه يلقون نفس المصير، ومن قبلهم قتل جده الحارث. وهو يسعى في سبيل الأخذ بثأر أبيه، والمنذر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغيث. وربما لقي في أول الأمر شيئاً من العون، ولكن ذلك لم يستمر، فقد أزوروا عنه، وهو يطلب من يجيره، وعين المنذر تتبعه وسيف المنذر وصلت يلمع أمام عينيه. فكان طبيعياً أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره. وهنا تلقانا مقطوعة رواها الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء، تصور حزنه على آبائه وما تجمع عليه من البلاء، وهي ذات الرقم الحادي عشر في ديوانه، وفيها يقول:

أَرَانَا مُوَضِّعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ	وَنَسَحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ (١).
عَصَافِيرٌ وَذِبَّانٌ وَدُودٌ	وَأَجْرًا مِنْ مَجْلَحَةِ الذَّنَابِ (٢).
وَكُلُّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ صَارَتْ	إِلَيْهِ هِمَّتِي وَبِهِ اِكْتِسَابِي
فَبَعْضُ اللُّومِ عَاذَلْتِي فَإِنِّي	سَتَكْفِينِي التَّجَارِبُ وَانْتِسَابِي
إِلَى عِرْقِ الثَّرِيِّ وَشَجَّتْ عُرُوقِي	وَهَذَا الْمَوْتُ يَسْلُبُنِي شَبَابِي (٣).
وَنَفْسِي سَوْفَ يَسْلُبُهَا وَجَرْمِي	فِيْلَحَقْنِي وَشَيْكََا بِالتَّرَابِ
أَلَمْ أَنْضِ الْمَطْيَ بِكُلِّ خَرَقٍ	أَمَقُّ الطُّولِ لِمَاعِ السَّرَابِ (٤).
وَأَرْكَبُ فِي اللُّهَامِ الْمَجْرَ حَتَّى	أَنَالَ مَأْكَلَ الْقَحْمِ الرَّغَابِ (٥).
وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى	رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

(١) موضعين: مسرعين. لأمر غيب: بريد الموت المغيب. ونسحر بالطعام: نتهلى ونخدع.

(٢) مجلحة الذناب: المصممة التي لا ترجع عما تريد.

(٣) وشجّت: اشتبكت واتصلت. ويشير يعرق الثري إلى آبائه الذين ماتوا.

(٤) أنضى: أهزل بطول الرحلة. والخرق: الفلاة. أمق الطول: واسع الطول.

(٥) اللهام: الجيش الكثيف. المجر: الكثير. المآكل هنا: الغنائم، القمح: جمع قحمة من الاقتحام ويريد التزاحم في شدة الرغاب: الاسعة.

أَبْعَدَ الْحَارِثِ الْمَلِكِ بْنِ عَمْرٍو وَبَعْدَ الْخَيْرِ حُجْرٍ ذِي الْقَبَابِ (١).
أَرْجَى مِنْ صُرُوفِ الذَّهْرِ لَيْنًا وَلَمْ تَغْفُلْ عَنِ الصَّمِّ الْهَضَابِ (٢).
وَأَعْلَمُ أَنَّنِي عَمَّا قَلِيلٍ سَأَنْشَبُ فِي شَبَا ظَفَرٍ وَنَابِ (٣).
كَمَا لَا قِيَّ أَبِي حُجْرٍ وَجَدِّي وَلَا أَنْسَى قَتِيلًا بِالْكَلابِ (٤).

فقد ضاع منه الماضي بكل أحلامه، وهو ينظر أمامه في الأفق البعيد بل القريب، فلا يرى إلا وادي العدم الذي يشد إليه الناس جميعاً رحالهم، وهم يتعللون عنه بالطعام والشراب، وهو في انتظارهم، وهم جادون في المسير إليه. ويصغر الناس وتصغر أطعمتهم في عينه، ويراهم ضعافاً كالعصافير والذباب والدود، ومع ذلك يسقطون على أطعمتهم كالذئب الضارية. ويطلب إلى عاذلته أن تكف عن لومه لتركه اللهو، فإن التجارب غيرت شخصيته خلال ما مر به من أهوال الحياة. وهو ينتسب، فلا يجد أمامه إلا موتى، وهو يترقب نفس الأجل المحتوم، وكأنه شخص آخر سوى هذا الشخص الذي كان يركب الخيل وينضيها في الفلاة الواسعة، والذي كثيراً ما انتظم في جيوش أبيه الكثيفة، يغنم المغنم الكبيرة. وها هو اليوم يطوف في الآفاق وراء مجده المضيع فلا يظفر إلا بالخيبة واليأس القاتل. وماذا يرجو بعد هذه الصخور الصلبة من آبائه وقد واراها التراب. إنه ينتظره بنفس المصير، فالموت يفتح فاه، وأظفاره وأنيابه توشك أن تفترسه افتراساً كما افترت جد الحارث وأباه حجراً وعمه شر حبيل يوم الكلاب.

والمقطوعة رائعة لأنها تصور لنا إحساسه بعبث الكفاح ضد المنذر وكيف كان هذا الإحساس يتعمقه في تلك الفترة من حياته. وليس له بعد ذلك أشعار تستحق الوقوف عندها سوى بعض مقطوعات قصيرة تتداخل فيها رواية الأصمعي مع رواية هشام بن الكلبي، وفيها يمدح ويهجو

(١) القباب: الخيام الكبيرة.

(٢) الصمم المصمتة: الجبال. الهضاب: الصلبة.

(٣) شبا كل شيء: حده. أنشب: أعلق.

(٤) قتيل موقعة الكلاب هو عمه شر حبيل.

بعض من كانوا يكرمون جواره أو يسيئون هذا الجوار فلا يمدون يد العون إليه، وهي شظايا صغيرة لا توضح منهجاً في مديح ولا هجاء.

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على قيمة امرئ القيس، فهو الذي نهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديث في بكاء الديار والغزل القصصي ووصف الليل والخيول والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر، ولعله سبق بأشعار في هذه الموضوعات، ولكنه هو الذي أعطاها النسق النهائي، مظهرًا في ذلك ضروباً من المهارة الفنية، جعلت السابقين جميعاً يجمعون على تقديمه، سواء العرب في أحاديثهم عنه أو النقاد في نقدهم للشعر الجاهلي، يقول ابن سلام: "سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتداعها، استحسنتها العرب وابتعته فيها الشعراء، منها: استيقاف صحبه والبكاء في الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ، وشبه النساء بالظباء والبيض وشبه الخيل بالقبان والعصى، وقيد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل بين النسيب وبين المعنى، وكان أحسن طبقته تشبيهاً"^(١).

وواضح أن هذه الفقرة من كتاب طبقات فحول الشعراء تقرر أن امرأ القيس هو الذي فتح للجاهليين أبواب النسيب والغزل ووصف النساء والخيول، وهي تضيف إلى ذلك قرب المأخذ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال لا يشوبها عسر ولا صعوبة، وأيضاً تضيف أنه فصل بين النسيب والمعنى، فلم يخلطه بشيء، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه.

وكل من يقرأ المعلقة وما أثبتناه له من شعر يلاحظ استواءً في العبارات واتساقاً في ترتيب الألفاظ، مما يدل على أنه كان يملك أعنة اللغة في يده، وقليل جداً ما قد نلاحظ عنده من بعض النبو كقوله السابق في المعلقة:

أحارٍ ترى بَرَقاً كأن وميضه	كلمع اليدين في حَبِيٍّ مُكَلَّل
يضيئ سناه أو مصابيح رَاهِبٍ	أهان السَّليط في الذُّبَالِ المَفْتَل

فقد كان ترتيب السياق ونسقه يقتضيان أن يكمل وصفه للبرق بأنه في حبي مكمل وسحاب متراكم وأنه يضيئ سناه، ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب. ولكن على كل حال مثل هذا قليل في شعره، إذ قلما نجد فيه اضطراباً في ترتيب ألفاظه ومعانيه.

(١) ابن سلام ص ٤٦ وأنظر الشعر والشعراء ١/ ٥٧.

وحقاً ما تقوله الفقرة السابقة عند ابن سلام من أنه أحسن طبقته تشبيهاً، فتشبيهاً جيدة، وهي تراكم في المعلقة وفي قصيدته (الأعم صباحاً أيها الطلل البالي) تراكمًا يجعله حقاً صاحب فن التشبيه في العصر الجاهلي فالتشبيهاً تتلاحق في صفوف متعاقبة، وقد عقد لها ابن سلام فصلاً في طبقاته^(١)، استمدته في جملته من القصيدتين السالفتين. وأول ما يلاحظ في هذه التشبيهاً أنها مستمدة من واقعه الحسي، وارجع إلى تشبيهاً في المرأة، فتساره يشبهها بالبيضة في بياضها ورقتها، كما يشبهها بالدرّة والبقرة الوحشية، أما ترائبها فكالمرأة وأما شعرها الغزير فكعذق النخلة المتداخل، وأما خصرها فلين كالزمام، وأما ساقها فكالبردي في بياضه، وأما أصابعها فكمساويك شجر الإسحل. وكل هذه الأوصاف ماثورة في المعلقة. وإذا تركنا حديثه فيها عن المرأة إلى حديثه عن الفرس وجدناه يشبهه بخذروف الوليد ومدالك العروس وصراية الحنظل والصخرة الملساء تسقطمن عل، كما يشبهه بالطبي في خاصرتيه والنعامة في ساقيه والذئب في عدوه والثعلب في تقرّبه وقفزه. ونحس دائماً أنه يحاول أن يطرف سامعه بما يورد عليه من الصور الغريبة، كقوله:

كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَّاتِ بَنَحَرِهِ عَصَارَةُ حِنَاءٍ بِشَيْبٍ مَرَجَلٍ^(٢).

فدم الوحش الذي صاده امرؤ القيس يلطخ صدر الفرس فيتراءى كأنه عصارة حناء صبغ بها شيب، إذ لا يكاد يفترق عن الخضاب في شيء. ويخرج من ذلك إلى وصف السيل والمطر، فيفزع إلى التشبيه الكثير، كأنه لا يرى الشعر شيئاً بدونه، وهو لذلك يوشى به كل شيء يعرض له في المعلقة، سواء حين يصف الثريا أو يصف الليل، وقد أبدع في وصفه لقطعه وأجزائه، فهي ماتني تتدافع وتتلاحق غير منتهية، وألم بالوحش، فشبهه بقرة بعذاري دوار، يقول:

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نَعَاجَهُ عَذَارَى دُورٍ فِي الْمَلَأِ الْمَذِيلِ^(٣).

وبذلك عكس الصورة فشبه البقر بالنساء، وهو تشبيه مقلوب، تبعه فيه الشعراء، وأصبح ضرباً من ضروب الخيال التي ينسجونها.

(١) أنظر ابن سلام ص ٦٧ وما بعدها.

(٢) الهاديّات: المتقدّمات من بقر الوحش. مرجل: مسرح.

(٣) السرب: القطيع. النعاج هنا: بقر الوحش. ودوار: صنم كانوا يطوفون به في الجاهلية المذيل: الطويل السابغ.

وننتقل معه إلى مطولته (ألا عم صباحاً أيها الطفل البالي) فتلقانا نفس تشبيهاته للمرأة التي لقيتنا في معلقته، فهي كالظبية وبيضة النعامة، بل هي كالتمثال الجميل يقول:

وياربَّ يومٍ قد لهوتُ وليليةٌ بأنسةٍ كأنها خطُّ تمثالٍ

ويشبه وجهها في إشراقه بالمصباح، ويقول غنها لينة ممتلئة كحقف الرمل أو ما استدر منه، ويشبهها بالغصن في اعتدال قوامها وتثنيها، أما شعرها فكشماريخ النخل في تداخله وغزارته. ويعرض لليل ونجومه فيشبهها بمصاييح رهبان، ويحدثنا عن شجاعته وأنه لا يرهب زوج من يغازلها ولا تهديده، فيقول:

أَيَقْتُلْنِي والمُشْرِفِي مُضَاجِعِي ومسنونة زُرُقٍ كأنَّيَابَ أَغْوَالِ

وهي صورة طريفة، لأنها تقوم على التخيل والوهم. ويخرج إلى وصف فرسه فيشبهه بالهراوة أو العصا في ضموره وصلابته، ويقول إنه ذعر به قطيع بقر، يجري البياض والسواد في سيقانه، حتى لكانها وشى برود يمانية بديعة. ويعود إلى فرسه، فيشبهه بعقاب تنقض انقضاضاً على فريستها، ويقول إن هذه العقاب تصيد الطير وتحمله إلى وكرها، فتأكله إلا قلبه، فمنها الطرى الغض، ومنها الجاف المتقبض، ويعمل خياله، وما يلبث أن يقول:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

وواضح أنه يشبه القلوب الرطبة بالعناب واليابسة بالحشف البالي أو التمر الرديء الجاف، وهو تشبيه كان القدماء يعجبون به لأن امرأ القيس استطاع أن يلائم ملاءمة خيالية بين أشياء متعددة. ويروي عن بشار أنه قال: ما زلت أحسد امرأ القيس على جمعه في هذا البيت بين تشبيه شيئين بشيئين، حتى قلت:

كَأَنَّ مِثَارَ النَّعْجِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلَ تَهَاوَى كَوَاكِبِهِ^(١).

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة^(٢).

(١) النعج: الغبار.

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٦/٣.

ولعلنا لا نبعد بعد ذلك كله إذا قلنا إن امرأ القيس هو الذي ألهم الشاعر العربي على مر العصور فكرة التشبيه، بل هو الذي وجهه إلى الإسراف في استخدامه، حتى عد ذلك ضرباً رشيقاً من ضروب الزخرف والبديع^(١). وبجانب هذا التشبيه نجد عنده بعض أمثلة للاستعارة المكنية والتصريحية، وهو يأتي بها في قلة، من ذلك قوله في المعلقة يخاطب الليل:

فقلت له لما تَطَيَّ بِصُلْبِهِ وأردف أعجازاً وناءً بَكَلْكِـلِ

فقد استعار صورة البعير هذا الليل الذي لا يزول. ومضى فاستعار صورة القيد لفرسه، فسماه قيد الأوابد فهي لا تقوته، على نحو ما مر بنا في بيته:

وقد اغتدى والطيرُ في وُكُنَاتِهَا بمنجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ

وإذا صحت رواية^(٢) أمال بدلاً من أهان في قوله يصف البرق:

يضيئ سناه أو مصابيحُ راهبٍ أمال السَّليطَ في الذُّبالِ المفتَلِ

كان البيت يتضمن استعارة بديعة، لأن من معاني أمال رعى، وكأنه استعار صورة رعي الأنعام للنبات لما يفنيه الذبال من الزيت شيئاً فشيئاً. وإذا تركنا معلقته إلى مطولته (ألا أنعم صباحاً) وجدناه يستعير للحلي على نحر صاحبه وتوجهه صورة الجمر، يقول:

كَأَنَّ عَلَى لَبَّاتِهَا جَمْرَ مُصْطَلٍ أصاب غَضًّا جَزْلاً وَكُفًّا بِأَجْذالِ^(٣).

ومن الحق أن الاستعارة قليلة في أشعاره، ولكنها على كل حال ماثلة فيها، مثلها مثل لوني البديع المسمين بالطباق والجناس، ومن أمثلة طباقه قوله في المعلقة يصف غدائر صاحبه:

غدايره مستشزراتٌ إلى العُلا تضلُّ المداري في مُثْنَى ومُرْسَلِ^(٤).

وقوله يصف فرسه:

(١) أنظر كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشوفسكي) ص ٥٨ وما بعدها.

(٢) ابن المعتز ص ٧.

(٣) الغضا: من أشجار نجد. الجزل: الكثير، كف: مد. الأجذال: أصول الشجر. يقول إنه جمر لا يزال متقدًّا، لأن بجواره مصطلياً يقلبه ويتعهده ومن حوله أصول شجر الغضا وعيدانه لا يزال يمد بها النار.

(٤) مستشزرات: مفتولات، المداري: الأمشاط.

كجلمود صخر حطه السيل من عل

مكر مفّر مقبل مدير معاً

ومن أمثلة الجناس قوله في غزله:

فسلى ثيابي من ثيابك تنسل

وإن كنت قد ساءتكم منى خليقة

وقوله:

بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

وبجانب ذلك كله نجده يعني بالتلاؤم بين ألفاظه، فقلما تلقانا فيها لفظة نابية في حروفها، وأيضاً نجد عنده عناية واضحة بموسيقاه، ولعله من أجل ذلك كان يكثر من التصريع على نحو ما صنع في المعلقة فقد صرع فيها مراراً، كما في بيته الذي أنشدناه آنفاً والذي يخاطب فيه الليل. وفي الحق أن الموسيقى تطرد في المعلقة اطراداً، فلا نحس بنشاز، سوى الزخافات التي يكثر منها على شاكلة قوله:

لدى السّتر إلا لیسة المتفضل

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها

فإن التفعيلة الثانية في حشو البيت "مفاعِلن" وليست مفاعيلن. وإذا قرأنا في المعلقة قوله:

كجلمود صخر حطه السيل من عل

مكر مفّر مقبل مدير معاً

بضم لام القافية- وهذا ما يقتضيه القياس النحوي تقول: من أسفل الجبل ومن عل أي من أعلاه فتضم اللام على نية حذف المضاف إليه- أصبح في البيت إقواء، وهو يكثر في الشعر الجاهلي وخاصة قديمه. وأيضاً إذا قرأنا وصفه للسيل وغثائه الملتف بجبل أبان في قوله:

كبير أناس في بجاد مزمل

كأن أبانا في أفانين ودقه

بضم اللام في كلمة "مزمل" وهو ما يقتضيه القياس النحوي لأنها صفة لكلمة كبير أناس المرفوعة أصبح في هذا البيت هو الآخر إقواء، إذ اختلفت حركة الروى، فأصبحت مرفوعة بينما هي في بقية القصيدة مجرورة. ويظهر أن هذا لم يكن يكثر عنده.

والحق أنه يعد أباً للشعر الجاهلي بل للشعر العربي جميعه، فقد استوى عنده في صورة رائعة، سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه، وقد مضى

يعني بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده مائلاً في استعاراته وبعض طباقاته وجناساته، وبذلك أعد الشعراء من بعده للعناية لحي معنوية ولفظية مختلفة.